

المحاضرة الخامسة

الآداب الشرقية القديمة

1- الأدب الهندي

لا نظن أننا نغالي عندما نقول أن مصطلح الآداب الغربية مصطلح حاضر في أذهان طلبتنا راسخ في معارفهم في حين أن مصطلح الآداب الشرقية لا يكاد يجد له مكانا عندهم، و الأكيد أن مناهجنا و البرامج المقترحة تقف وراء هذا الخلل من خلال التركيز الكامل على آداب بالغرب و كل ما يتعلق بها من دراسات و ما يأتي منها من مناهج و نظريات على حساب الشرق بالرغم ما للآداب الشرقية من مكانة رفيعة يعترف بها الغربيون أنفسهم قبل غيرهم، و يكفي دليلا على ذلك انبهار هيجل الكبير بالعالم الشرقي ، إلى الحد الذي جعله يقول في كتابه " العالم الشرقي " : أن في آسيا أشرق ضوء الروح و من ثم بدأ التاريخ الكلي

عالم كهذا، لا شك أنه قادر على إنتاج أدب راق يعكس صورة الإنسان الشرقي و عاداته و تقاليده، و نظمه و قوانينه و أخلاقه، و كل ما يتعلق بحياته . و الذي نعينه بالأدب الشرقي في كلامنا اليوم هو أدب الدول الآسيوية العريقة منها خاصة كأدب الهند و الصين و اليابان و الفرس...

و لكل أمة من هذه الأمم قيمتها و حضارتها الموهلة في التاريخ و لجميعها آداب و ثقافات عريقة لها خصوصيتها ، و الذي لا شك فيه فان الآداب الشرقية القديمة جميعها تشترك في أنها انتقلت شفاهة من جيل إلى جيل قبل أن تصل إلينا كما هي مدونة اليوم كما أنها - أعني الآداب الشرقية - قائمة في الأساس على ثلاثة أعمدة رئيسية تميزها هي : الظاهرة الدينية ، حضور الأسطورة ، و الجنوح إلى الخيال . و على كل فإننا في هذه العجالة سنقف في البداية عند الأدب الهندي لنفتح معكم - طلبتنا - بابا من خلاله يمكنكم التعرف و لو باختصار على تاريخ هذا الأدب و فنونه و بعض أعلامه رغبة في توسيع المعارف و تنويع الثقافة .

نعني بالأدب الهندي ذلك الأدب الذي أبدعته قرائح الأدباء الهنود ليعبروا به عن مكونات أنفسهم و ينشروا أفكارهم و يصوروا حياتهم و الأكيد أن الأدب الهندي - كغيره من آداب الأمم الأخرى - لم يخلق من عدم و لم يولد راشدا فقد خضع لسنن الطبيعة و نوااميس الحياة ...

فقد مر هو الآخر كما يرى الدارسون و المهتمون بالآداب القديمة بمجموعة من المراحل يمكن تلخيصها كما يلي:

المرحلة الأولى :

كغيره من الآداب القديمة ارتبط الأدب الهندي القديم بالشفوية من جهة و الظاهرة الدينية التي سيطرت على تفكير الإنسان القديم من جهة أخرى يقول جبور عبد النور في هذا الصدد : "أسوة بعدد كبير من الآداب القديمة الأخرى أول ما ظهر في الأدب الهندي نصوص مرتبطة بشؤون العقيدة الدينية و الشعائر العائدة إليها و كانت في معظمها شفوية متنقلة سماعا من جيل إلى جيل ثم منتهية بعد التبدل و التعديل إلى الظهور في صفحات مكتوبة "

أهم ما يميز هذه المرحلة و يجب أن نقف عنده كتاب " الفيدا " و هو كتاب ديني هندوسي مقدس كتب كما يرى بعض الدارسين على مدى مئات السنين من 500-2500 قبل الميلاد. يقع هذا الكتاب في ثمان مئة مجلد و يضم أناشيد و تراتيل وضعت خصيصا لتحفظ و ترتل في المناسبات . و الفيدا كلمة تعني المعرفة بهذا الإطلاق ما يعني أن هذا الكتاب يتضمن كل ما يهم الإنسان الهندي في حياته في جميع نواحيها الدينية و الفكرية و الأخلاقية و الاجتماعية و الفلسفية ...و الأكيد أن كتابا بهذا الحجم و هذا التنوع لا يمكن أن نزعّم أو نفتنّع انه من تأليف رجل واحد بل هو نتاج لمجهود مجموعة من المؤلفين و على مدى أجيال متعاقبة و الأكيد أن ما هو متاح بين أيدي الدارسين اليوم لا يمثل إلا جزءا من الكتاب باعتبار أن القسم الأكبر منه قد ضاع مثلما ضاعت مؤلفات الأمم القديمة الأخرى.

المرحلة الثانية:

يمثل هذه المرحلة الأدب الهندي المكتوب باللغة السنسكريتية القديمة التي تعتبر أم اللغات الهندية المختلفة و الأدب الهندي في هذه المرحلة بقي مرتبطا بالظاهرة الدينية إذ ظهرت مجموعة من الكتب ذات الصبغة الدينية يأتي على رأسها " البراهمانا "

و البراهمانا كتاب يرتبط ارتباطا وثيقا بالفيدا إذ ألف خصيصا لشرح و تفسير ما جاء في كتاب الفيدا من التيمات و المواضيع التي يبدو انه بطول الزمن أصبحت مستعصية على الفهم و الاستيعاب، خاصة على العامة من الناس كما تضمن هذا الكتاب العديد من الأساطير كأسطورة الطوفان إضافة إلى كثير من الآراء

الفلسفية و الحكم وقد تميز البراهمانا بطابعه الرمزي الشيء الذي لفت إليه انتباه الدارسين فانكبوا عليه بدراسات دينية و فلسفية عميقة .

المرحلة الثالثة:

تعود هذه المرحلة للقرن السادس قبل الميلاد تميزت بوضوح أضخم و أشهر ملحمتين في الأدب الهندي و حتى العالمي أعني المهابارتا و الرامايانا و قد تلتتهما العديد من المؤلفات و التي تميزت جميعها بسيطرة الروح الدينية باعتبارها تركز الحديث عن تمجيد الآلهة و تعرض الأساطير المتعلقة بالأرباب و الطقوس المتعلقة بعبادتها و يبدو أن مؤلفات هذه المرحلة عرضت مادتها بأساليب عذبة و أفكار مائعة أضفت عليها جمالا و سحرا شد إليها الأدباء و الدارسين فاقبلوا عليها و تعلقوا بها سواء القدماء منهم أو المحدثون

المرحلة الرابعة:

تبدأ هذه المرحلة في القرن الثاني قبل الميلاد مرحلة تراجعت فيها سيطرة الروح الدينية فقد جنح الكتاب الهنود في هذه المرحلة الى الاهتمام و الحديث عن الأمور الدنيوية دون اختفاء تام لأُمور العقيدة و الدين و مرد ذلك يعود إلى طبيعة الحكم الذي كان بيد ملوك "غوبا" الذين شجعوا النشاط الفني و الأدبي إلا أن اللغة الهندية السنسكريتية في هذه المرحلة مالت إلى التصنع و الاستعارات الموعلة في الغموض و كثر فيها الرمز الى الحد الذي أصبح من العسير الوقوف على المعاني و المقاصد عندما أصبح الأدب المكتوب بها عبارة عن رموز و طلاسمة تحتاج إلى معين لفكها و فهم مضامينها ففقد بذلك الأدب صلته بالعامية و أصبح خاصا بأهل العلم و الاختصاص و رجال الدين ومن أشهر أدباء هذه المرحلة " كاليداسا " الشاعر الملحمي و المسرحي الذي كتب بالسنسكريتية و تميز برفعة أسلوبه و تنوع إنتاجه من ذلك راغوفامسا و مغادوتا و رقصة الفصول التي وصف فيها الفصول الستة في السنة الهندية .

ابرز فنون الادب الهندي:

في الأدب الهندي كما في غيره لا بد من فنون و قوالب يصب فيها الأديب إبداعه ، فنون لا شك أنه يشترك فيها مع غيره من الآداب القومية الأخرى وان بدا كل أدب فيها بما يميز شخصيته الخاصة به و لعل من أبرز الفنون التي يجب الوقوف عندها في الأدب الهندي

1- فن الحكاية الأسطورية و الخيالية، الفن الأصل الذي لازم الأدب الهندي منذ عهد الشفوية وقد تميز بصبغته الشعبية و يبدو ان تركيز الهنود على هذا الفن كان كبيرا إذ اتخذوا منه وسيلة لتثقيف الناشئة و غرس المبادئ السامية الأفكار المستنيرة و الأخلاق الرفيعة فيهم من أمثلة ذلك " بنج تناترا " الكتاب الذي نقله إلى العربية ابن المقفع تحت عنوان " كليله و دمنه " و من أمثلة ذلك أيضا المصنف المعروف ب " الكتب الخمسة " الذي يصور حياة مختلف المناطق الهندية وقد عاجلت قصصه قضايا العامة و كتبت بأسلوب ممتع متخذة من الحيوانات أبطالاً بدلالات و رموز مقصودة و عادة ما تتخلل سردها أبيات من الشعر ونظرا لما اتصفت به هذه الحكايات من جاذبية لقرائها فقد لاقت رواجاً كبيراً بين القراء عند جميع الأمم خاصة عندما ترجمت إلى العديد من لغات العالم.

2- فن الرواية و نعني بها الحكايات الطويلة التي تصور واقع حياة الناس و تعالج همومهم اليومية من أشهرها : " حكايات الفتيان العشرة " التي تتمثل أحداثها في أن كل واحد من هؤلاء الفتيمة يذكر مغامراته في أثناء حملة عسكرية و " تاريخ حرصا " التي ألفها الشاعر " بانا " للإمبراطور " حرصا " حيث مجده و وصف الحياة في بلاطه و أبرز بطولاته في حملاته ضد أعدائه و بالنظر إلى طبيعة الأحداث في الروايتين لا يخفى ما من روح ملحمة فيهما .

3- فن المسرح لم يخض الأدباء الهنود في هذين الفنين فحسب بل أبدعوا كذلك في الفن المسرحي و اتقنوه منذ القدم و عاجلوا به قضاياهم و ما يهم حياتهم أو حياة الخاصة منهم و أحيانا تعرضوا من خلاله إلى بعض الموضوعات الخيالية و الملحمية من أشهر المسرحيات و أمتعها مسرحية " شكونتالا " للشاعر " كاليداسا " التي تصور عاطفة الحب و العلاقات الإنسانية من خلال ما حدث بين الملك " دوستا " و ابنة إحدى الحوريات الفتاة " شكونتالا " ، حيث وقع في غرامها و تزوجها سرا و أعطاهما بعد فراقه عنها خاتماً غير أن أحد النساء اعتبر هذه العلاقة خطيئة و نقم عليه فأفقدته ذاكرته و أضاعت الفتاة الخاتم و لم تستطع إثبات علاقتها به و مرت السنوات على هذه الحال حتى عثر الملك على الخاتم فاستعاد ذاكرته و ذات يوم صادف شاباً يشبهه و اكتشف انه ابنه من " شكونتالا " و سعيًا لإرجاعها..

من الناحية الفنية اعتمد " كاليداسا " الشعر و النثر و الغناء و جعل النبلاء يتحدثون باللغة السنسكريتية بينما عامة الناس و النساء و الأطفال يتحدثون مختلف اللهجات الشعبية الهندية من هنا بدأت تظهر إلى الوجود اللغات المنبثقة عن اللغة الأم و التي انتشرت في مختلف مناطق شبه القارة الهندية خاصة تلك التي اتخذتها الديانة البوذية في التبشير بدعوتها و التي أصبحت بعد ذلك لغات رسمية و تعد بالعشرات كالبنالية

التامولية الكنارية الكردية و البنغالية التي كتب بها حديثا الشاعر طاغور بل أن الأدب البنغالي سيطر على جميع ما سواه من الآداب الهندية الأخرى بعد أن تأثر بالتيارات الغربية الحديثة .

المحاضرة السادسة

2- الأدب الفارسي

لا يختلف اثنان في أن الأدب الفارسي هو أقرب الآداب إلى الأدب العربي و أكثرها تأثيرا و تأثرا به و الذي نعينه بالأدب الفارسي ما أنتجته أمة الفرس و تركته من آثار إبداعية على مر التاريخ و التي يمكن تصنيفها ضمن دائرة الأدب، و الأمة الفارسية أمة قديمة عريقة في القدم ، لها تاريخها و حضارتها و ثقافتها الممتدة في أعماق التاريخ البشري، و مع ذلك فإنه لا يعرف اليوم عن الأدب الفارسي القديم إلا النزر اليسير الذي لا يتعدى بعض المنقوشات التي تعود إلى عهد الملوك الأخمينيين الذين أنشأوا إمبراطورية فارس و حكموا في الفترة الممتدة بين 330/550 قبل الميلاد .

تعتبر اللغة الزندية أقدم اللغات في بلاد الفرس و لم يصلنا من النصوص المكتوبة بها إلا بعض الآثار أهمها " الأفاستا "

" الأفاستا " هو الكتاب المقدس عند إتباع الديانة الزرداشتية نسبة إلى زرداشت المؤسس الأول لهذه الديانة و الزرداشتية هي ديانة إيرانية قديمة، تمثل الدين الرسمي للإمبراطورية الأخمينية . يضم كتاب الأفاستا مجموعة من الأناشيد و التعاليم يعتبره الدارسون للآداب القديمة موسوعة تمثل أقدم وثيقة تبرز حضارة و ثقافة الفرس و علومهم و دياناتهم و تاريخهم و قوانينهم و طبيعة حياتهم من حيث أخلاقهم و عاداتهم و تقاليدهم ... انه بحق أحد المصادر المكتوبة في تاريخ الفرس إن لم نقل البشرية جمعاء.

الأكيد أن هذا الكتاب كغيره من كتب الأمم القديمة تناقلته الأجيال شفاهة عبر مئات السنين قبل تدوينه ، ما يجعلنا على يقين أن هذا الكتاب قد تعرض إلى الحذف و الزيادة و التغيير إلا أن ذلك لم يفقده قيمته العظيمة عند الفرس و عند غيرهم . و ما يؤكد هذه القيمة هو اهتمام الدارسين و المؤرخين و علماء الأديان به، سواء القدماء منهم أو المحدثين من هيروdot (425/ 484 ق م) إلى أرسطو (347/427 ق م) و من غوتي (1832/1749 م) إلى نيتشه (1900/1844 م)

وقد ظهر بعد هذا الكتاب كتاب الزند الذي يعتبر تفسيراً لما جاء فيه عسير التعابير و عمق الأفكار، ما يعني أن مستوى الأفاستا كان أعظم من أن يتيسر للجميع فهم و استيعاب ما فيه . و أما الأدب المكتوب باللغة الفهلوية قبل الفتح الإسلامي فقد كان في معظمه لا يخرج عن القضايا ذات الصلة

بالظاهرة الدينية .أو التاريخ و سير الملوك من ذلك "خداي نامه " أي كتاب الملوك إضافة إلى " هزار أفسانه " الذي يرى الدارسون انه الأصل لكتاب ألف ليلة و ليلة .

بعد الفتح الإسلامي كان للدين الجديد و الذين حملوه ليشروا به، تأثير عميق في بلاد الفرس في جميع النواحي ، فقد تأثرت اللغة الفارسية باللغة العربية تأثرا كبيرا فقد اعتمد الحرف العربي في كتابتها و استعارت كما هائلا من ألفاظها و حتى بعض تراكييبها، كما تأثر الناطقون بها بالدين الإسلامي و ببعض عادات و تقاليد الفاتحين.

و اللغة الفارسية الحديثة لغة تطورت عن اللغة الهندية و تأثرت باللغات الغربية ما يجعلها لغة هندية أوروبية البنية مكتوبة بالحرف العربي و لعل هذا ما يؤكد ما ذهب إليه بعض الدارسين أن الأدب الفارسي تلاقت فيه مجهودات أمم مختلفة و شاركت فيه شعوب كثيرة من عرقيات و أجناس مختلفة إلا انه و الحق يقال بقي محافظا على فارسيته من خلال الحفاظ على خصائصه التي تميزه عن غيره و التي يمكن إجمالها فيما يلي :

- سيطرة الروح الدينية و الملحمية
- السعي لإحياء القومية الفارسية
- الزخرفة اللفظية
- ارتباطه بالبلاط
- سيطرة الشعر من خلال الحضور القوي للملاحم و الغنائيات و الأخلاقيات و الصوفيات و الشعر عند الفرس شديد الشبه بالشعر العربي من حيث اعتماد البيت المكون من صدر و عجز و المتكون من تفعيلات من نماذجه:
- المثنوي: يروج كثيرا في المطولات الصوفية و في الملاحم
- الترجيع : مقطعات أبياتها موحدة القافية
- الرباعي : منظوم من أربعة اشطر يتميز بكثافة المضمون و إيجاز العبارة اعتمد خاصة في التصوف و الأخلاق و الومضات العاطفية

- الدوييت: الكلمة مكونة دو اثنان بالفارسية + بيت كلمة عربية و نفسه القالب الشعري الذي دخل الشعر العربي و هو من الرباعيات و على العموم فان الشعر الفارسي في مجمله شبيه بما هو عند العرب يعالج مختلف أغراض الشعر عندنا.

عصور الأدب الفارسي:

يخص هذا التقسيم فترة ما بعد الفتح الإسلامي حيث سيطرت اللغة الفارسية الحديثة بعد حوالي قرنين من الزمن و يكاد الاتفاق يكون تاما بين مؤرخي الأدب حول تقسيم تاريخ الأدب الفارسي الى خمسة عصور .

عصر الخلفاء ة الممالك المحلية :

يغطي هذا العصر القرنين التاسع و العاشر الميلاديين فيه تمكنت اللغة الفارسية الحديثة من فرض نفسها على الحياة الأدبية و الرسمية وقد تأثرت هذه اللغة كما قلنا باللغة العربية فاقتبست منها الألفاظ و التعابير و المصطلحات وقد سعى الأدباء و الشعراء الفرس في هذه المرحلة من تاريخهم إلى إحياء القومية الفارسية و من أشهر رجالات هذه المرحلة المسعودي (957/896 م) الذي وضع النص الأول للشاهنامة معتمدا على كتاب الملوك المكتوب باللغة الفهلوية كما اشتهر في الشعر الرودكي (940/ 858 م) الملقب عندهم بأبي الشعر الفارسي و هو من نظم كليلة و دمنة شعرا يضاف إلى الشخصيتين علي البلعمي (ت 975 م) الذي ترجم تفسير القرآن للطبري.

عصر السلاجقة

يمتد هذا العصر من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي فيه ارتقى الأدب الفارسي إلى مرتبة أعلى شأنًا و ظهر فيه بشكل واضح الميل نحو التصوف و اعتماد الشعر التعليمي الذي اتخذ الشعراء وسيلة للتوجيه الديني و قد اشتهر في هذا العصر العديد من الشخصيات في مختلف الميادين منهم بابا طاهر المعروف بالعريان (1032/947 م) الشاعر الذي ألف رباعيات في المتصوف دعا من خلالها إلى اعتزال الخلق و البعد عن زخرف الحياة و التقشف في العيش.

كما اشتهر الرحالة ناصر خسرو (1088/1004 م) برحلته "سفر نامه " التي قادته إلى البلد العربية و كذاك سطع نجم الفردوسي (1020/932 م) الذي أتم الشاهنامة . ولا يمكن أن

نتجاوز هذا العصر دون أن نذكر ابن مدينة نيسابور عمر الخيام (1122 / 1050 م) الشاعر و العالم و الفيلسوف صاحب الرباعيات.

عصر المغول

يحدد الدارسون و المهتمون بتاريخ الأدب الفارسي فترة هذا العصر بين القرنين الثالث عشر و الخامس عشر ميلادي و يعتبرونه ازهي مراحل هذا الأدب بل يصفونه بالعصر الذهبي نظرا لما شهدته الأدب الفارسي من تطور خاصة الشعر الصوفي الذي كان ردة فعل على أوضاع سياسية و اجتماعية و دينية و من أشهر شخصيات هذا العصر الجويني صاحب كتاب جهانشكا و كذلك العطار (ت 1230) و سعدي الشيرازي (1193 / 1292 م) الشاعر و المتصوف الذي تميز بأسلوبه السلس الواضح و بقيمه الأخلاقية التي جعلت منه أكثر شعراء الفرس شهرة و قربا من النفوس.

عصر الاستقلال:

يغطي هذه العصر الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر في هذه المرحلة بدأ الأدب الصوفي يتجه نحو الضعف إذ أصابه ما لأصاب الأدب العربي و مع ذلك تألقت فيه بعض الأسماء كالهالي (ت 1533) الذي وضع مجموعات شعرية صوفية و الرحالة أمين الرازي الجغرافي الذي ألف العديد من المؤلفات أشهرها " هفت إقليم " أي الأقاليم السبعة و هي موسوعة ضمنها العديد من المعارف الجغرافية

العصر الحديث :

تميز هذا العصر بانفتاح الأدب الفارسي على الأدب الغربي فتسريت له النظريات الغربية المتنوعة و أثرت فيه تأثيرا واضحا إلى الحد الذي فقد بعض ملامحه الأصيلة و الملاحظ أن الشعر في هذا العصر تراجع و فسح المجال أمام النثر و لم نجد إلا القلة من الشعراء الذين يمكن أن يكونوا نجوما منهم الشاعر نيما يوشيج (1897 / 1959 م) الذي تأثر بالتيارات الحديثة و تمكن من مجاراتها لكنه بقي محافظا على أصالته و أما في ميدان النثر فقد اكتسحت الرواية الساحة الأدبية الفارسية خاصة الرواية الرومنسية التي اشتهر فيها كتاب أبدعوا في كتابتها منهم صادق

هدايت(ت1951) مؤلف " البومة العمياء " و جمال زاده (1892 / 1997) الروائي المعارض
الذي ألف " ذات يوم " في العام 1916 و " بيت المجانين " 1942

المحاضرة السابعة

الأدب الإفريقي

إشكالية المصطلح

في البداية لا بد من الاعتراف أنه ليس من السهل الحديث عن الأدب الإفريقي و الخوض في قضاياها نظرا لقلّة المراجع و الدراسات المنجزة حول هذا الأدب في رفوف المكتبة العربية و إن وجدت فكثير منها مكتوب بلغات غير اللغة العربية ما يجعل التعامل معها صعبا يحتاج إلى إتقان تلك اللغات.

إن المنطق يفرض علينا أن نبدأ حديثنا عن الأدب الإفريقي انطلاقا من المصطلح ذاته نظرا لحدائته و نظرا لما يشيّر من تساؤلات إذ المعلوم أن هذا المصطلح لم يكن للدارسين سابق معرفة به قديما باعتبار أن ظهوره كان مع بروز حركات التحرر الحديثة في القارة الإفريقية و نيل بعض بلدان القارة استقلالها.

الأکید أن هذا المصطلح مصطلح خلافي تعددت حوله وجهات نظر المهتمين بدراسة الأدب الإفريقي و تاريخه سواء من المستفرقين أو من أبناء القارة ذاتها، ما يعني أن مصطلح الأدب الإفريقي يطرح إشكالية على مستوى تحديده لهذا الأدب أو دلالاته عليه فهل نعني بالأدب الإفريقي الأدب الزنجي؟ أم نعني به الأدب الذي أنتجته قرائح أبناء إفريقيا؟

هناك من الدارسين و هم الأغلبية الساحقة من المستفرقين خاصة يرون أن الأدب الإفريقي يقصد به أدب جنوب القارة أو الصحراء الكبرى أو أفريقيا السوداء أو أدب الزنوج فهم يزعمون أن إفريقيا قارة تقسمها الصحراء الكبرى إلى قسمين مختلفين كل الاختلاف: قسم يقع شمالها يسمونه إفريقيا العربية الإسلامية و آخر يقع جنوبها يسمونه الصحراء أو إفريقيا السوداء، يقول المستشرق الانجليزي "جيرالد مور" : " أن إفريقيا الشمالية منطقة أدبية منفصلة تمام الانفصال عن إفريقيا الصحراء أو السوداء " . و يقترب من هذا الرأي المستشرق الألماني "يان هاينزيان" الذي يرى أن إفريقيا مصطلح جغرافي لا ثقافي و ثمة منطقتان ثقافتان مختلفتان لكل منهما تاريخ مختلف و تقاليد مختلفة فمن ناحية يوجد شمال إفريقيا و من جهة أخرى يوجد ما يسمى إفريقيا الجنوبية أو الزنجية أو السوداء أو غير الإسلامية "

المتمعن في هذا التقسيم يلاحظ بوضوح أنه تقسيم سياسي استعماري نابع من نظرة غير بريئة تسيطر عليها أفكار مسبقة راسخة في أذهانهم منذ تفكيرهم في استعمار القارة . وهذا التقسيم في الواقع لا يستقيم لاعتبارات أهمها :

- أن الاتصال و التواصل بين شمال القارة و جنوبها أمر واقع لا ينكره أحد ما يعني أن التأثير و التأثير و على جميع المستويات أمر واقع أيضا فقد كان بين شعوب المنطقتين جميع أنواع العلاقات على امتداد آلاف السنين خاصة في الجانب الديني بفضل انتشار الإسلام عن طريق الطرق الدينية خاصة الطريقة التيجانية التي يعد أتباعها بالآلاف في مختلف الدول كمالى و النيجر و السنغال ..
- أن أصحاب البشرة السوداء كثير منهم ينتسبون إلى دول الشمال الإفريقي و قد امتزجوا ببربر و عرب هذه المنطقة . و الكثير من الزنوج يعدون جزءا من الثقافة الإسلامية بل أن نسبة كبيرة من الأفارقة يعتنقون الإسلام و يمكن الإشارة هنا إلى الشاعر الصومالي محمد عبد الله حسن الذي نظم ملحمة تحت عنوان " الملحمة المحمدية " باللغة السواحلية وتقع في 25150 بيتا تناول فيها سيرة محمد صلى الله عليه و سلم

و العجيب أن بعض الأفارقة هرولوا وراء هذه النظرة الغربية كما هو الحال مع الكاتب الجنوب إفريقي ازيكياى hizikial مفاليلي الذي يقول: " أن الشمال العربي المسلم لا علاقة من الناحية الثقافية بالإنسان الإفريقي " كلام كهذا لم يجد قبولا عند البعض الآخر إذ أن هناك من الأفارقة من يرى غير ذلك كالنيجيري كريستوفر أوكيدجو الذي يرى أن الأدب الإفريقي هو ببساطة الأدب الموجود في أفريقيا و إن كان هذا الكلام مقبولا من منطلق عدم التقسيم إلا أنه يطرح سؤالا هاما هو ما مصير الأدب الموجود في إفريقيا و هو ليس من تأليف أبنائها ؟

و يقترب من هذا الرأي رأي تشينو أتشيبي أحد النقاد و رواد الرواية في نيجيريا الذي قال : أنا لا أرى الأدب الإفريقي كوحدة واحدة و إنما أراه مجموعة من الوحدات المرتبطة تعني في الحقيقة المجموع الكلي للآداب القومية و العرقية في إفريقيا.

بعد هذا العرض لبعض الآراء في تحديد مفهوم الأدب الإفريقي يمكننا القول على الإجمال أن أحسن ما يمكن أن نعرف به هذا الأدب ما قاله "مباي لوبشير" عندما عبر عن نظريته بقوله: هو الأدب الوليد في البيئة الإفريقية و الذي جادت به قرائح أبناء هذه القارة أنفسهم معبرا عن مشاعرهم و انفعالاتهم مؤثرا في القارئ و السامع بأسلوب رفيع بغض النظر عن الزمان و المكان.

إن الواجب يفرض علينا ان نعامل الأدب الافريقي و ننظر إليه بنفس المنظار الذي ننظر به إلى الآداب الأخرى فنقر بمصطلح الأدب الافريقي بنفس المدلول العام الذي يشير إليه الأدب الأوروبي مثلا و نقر في نفس الوقت بوجود آداب افريقية سنغالي نيجيري مالي أوغندي.... تماما كقوانا آداب أوروبية انجليزية فرنسي ايطالي.....

نشأة الأدب الإفريقي:

1- مرحلة الشفوية:

كانت بداية الأدب الإفريقي بداية شفوية في أحضان حضارة افريقية متميزة عن غيرها من الحضارات يعتبرها الدارسون . أقدم حضارة على وجه الأرض يعود تاريخها كما يزعم بعض الباحثين في علم الإنسان إلى سبعة ملايين سنة.

الأكيد أن للأفارقة تراثا ثقافيا يصور حياتهم و يعبر عن ثقافتهم و يميز شخصيتهم لكن للأسف لم يصل إلينا إلا جزء بسيط منه و لعل السبب في ذلك يعود إلى عدم التدوين من جهة و إلى الإهمال و الانشغال بالحروب الداخلية و الخارجية من جهة أخرى يضاف إلى ذلك أن كثيرا من اللغات المحلية التي كانت وسيلة لرواية هذا التراث هي في الغالب غير مكتوبة . و عليه فقد سيطرت المشافهة على التواصل بين الأفارقة حيث تناقلوا الأخبار و الأشعار و الأساطير و الخرافات و الحكايات بينهم من جيل إلى جيل و من قبيلة إلى قبيلة عن طريق الرواية . التي يقوم بها راو يتميز بفصاحة اللسان و بلاغة الكلام و قوة الحفظ .

و الحقيقة التي يقرها المهتمون بالبحث في الأدب الإفريقي القديم أن ما وصل إلينا مما كان يروي يدور في معظمه حول بعض الأشعار الشعبية و الخرافات و الأساطير و الحكايات التي يسيطر عليها الخيال ، و قد كان لكل قبيلة من القبائل الإفريقية نظرة و اعتقاد خاص ، فقبيلة الكونغو مثلا تعتقد أن القوة الحقيقة في الوجود هي الموت قبل الإله أما قبائل زامبيا فيعتقدون أن الإله يئأس أمام قوة الإنسان و أما شعب الإيويو في دلتا النيجر فيعتقد أن الآلهة تسمح للإنسان اختيار قدره قبل ميلاده. إضافة إلى ذلك انتشرت القصص الشعبية التي تتميز بسطوة الخيال على أحداثها و سيطرة الحيوانات الماكرة على أبطالها ، كالأرنب البري و العنكبوت و السلحفاة و هي الحيوانات المحتالة التي تتميز بذكاء و دهاء و في العادة تواجه أعداء هم أعظم منها ، فالعنكبوت في قصصهم شخصية أسطورية و عدو لدود لإله السماء دائما ما يسرق قصصه و يخدعه. في هذه القصص عادة ما يبعث الراوية عاطفة الانبهار و المتعة و الضحك في السامعين فعلى سبيل المثال يروي أن السلحفاة سرقت الحكمة من

الآلهة و عندما حاولت الهروب اعترضتها شجرة لأنها كانت قد علقت السللة في رقبتها و عندما حاولت نزعها تناثرت الحكمة في العالم...و في أثناء هذه القصص و الحكايات و الأساطير يكثر الراوي من ضرب الأمثال فالمثل عندهم كما يقولون هو : إدام الكلام و زيت النخيل و هذا يدل على حكمة الراوي والهدف التعليمي و التوجيهي و التربوي المراد من ذلك

2- مرحلة الكتابة:

الحديث عن الأدب الإفريقي المكتوب يضعنا هو الآخر أمام إشكالية اللغة التي يكتب بها من حيث طبيعتها و قيمتها و مدى انتشارها و نسبة الناطقين بها و المتعاملين بها و لتكون الصورة واضحة فإنه لا بد من الإشارة و لو بإيجاز إلى اللغات الإفريقية التي يعتمد عليها الأدباء الأفارقة وسيلة للتعبير عن مشاعرهم و إيصال أفكارهم و نقل صورة حياتهم و ثقافتهم...يؤكد الدارسون المشتغلون على البحث في اللغات أن إفريقيا مثقلة بمئات اللغات المحلية التي تصل إلى حدود 1500 لغة أو لهجة تجمعها عشر مجموعات هي الكردفانية و البمبارا و السواحلية و الحوصة و الجعزية و الامهرية و التيغرية و التغرانية الامازيغية و العربية يضاف إلى هذا اللغات الوافدة مع الدول المستعمرة .

وضع كهذا يجعلنا نتساءل كم من أدب يمكن أن نجد في إفريقيا خاصة عندما نعلم أن الدولة الواحدة يمكن أن نجد فيها عدد اللغات بعدد القبائل التي تنتمي إليها و من هنا يطرح السؤال الأهم أي لغة هي الأحق و الأنسب للأدب الإفريقي ؟ وجاءت الإجابة من تيارين مختلفين :

الأول: يرى أصحاب هذا التيار ان على الأديب أن يوظف اللغة الوافدة للتعبير عن تجربته و يقدمون لذلك تبريرات أهمها :

1- أن ليس هناك لغة محلية تجمع كل شرائح المجتمع حتى في البلد الواحد و استعمال لغة قبيلة دون أخرى قد يخلق صراعا و عداوة بين أبناء البلد الواحد .

2- أن اعتماد لغة محلية يؤدي إلى تقوقع الأدب في نطاق ضيق مما يحرمه من الخروج إلى الإقليمية و العالمية

3- يزعمون أن على الأديب الإفريقي أن يعرف بقضيته و قضايا قارته و يكشف ما يعانیه من قهر و بالتالي لا بد أن يستعمل لغة يمكنه من خلالها التواصل مع العالم الخارجي و لن تكون تلك اللغة إلا

لغة أوروبية استعمارية و بهذه النظرة يبدو ان هؤلاء استلموا للأمر الواقع عندما يتحدثون عن عدد المتحدثين بالانجليزية من الأفارقة الذي يفوق مئة مليون نسمة و الفرنسية يفوق خمسين مليون نسمة و البرتغالية يفوق عشرين مليون نسمة.

الثاني: يرى أصاب هذا التيار أن دور الأديب هو خدمة قومه و التعبير حالهم عن آلامهم و آمالهم من خلال معالجة قضاياهم و التفاعل معهم و بالتالي عليه أن يخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها و يشعرون بالفخر بالانتماء إليها فالتشجير يبدأ من عقر الدار كما يقول المثل الإفريقي و عليه فإن قيمة الأديب تكمن في استخدام لغة اتصال مع العامة لا مع الخاصة و يؤكد أصحاب هذا التيار:

- 1- أن استعمال لغة المستعمر الوافدة يؤدي في النهاية إلى اندثار اللغة المحلية و ضياع مقوم من مقومات الشخصية
- 2- أن على الأديب الإفريقي أن يكون أكثر انفتاحا على قارته و يسعى إلى توظيف اللغات الالهريقية الأكثر انتشارا كالسواحلية التي يتحدث بها عشرات الملايين من الأفارقة.
- 3- أن استعمال اللغات المحلية يخدمها من حيث أنه يبعث فيها الحياة و شيئا فشيئا و بجهود علمائها و المبدعين بها تخرج العالمية و تفرض نفسها.

و من أبرز المؤيدين لهذا الرأي و المدافعين عنه بل المناضل من أجله السنغالي الأديب الرئيس "ليوبولد سيدار" سنغور (2001/1906) الذي قال :ليس هناك حضارة بدون أدب يعبر عن القيم و بدون أدب مكتوب ليس هناك حضارة تذهب أبعد من أبسط معرفة لخصائص الشعوب مكن كيف لنا أن نفهم أدبا محليا في لغة غير لغة البلد ؟ أين يمكن لنا أن نجد تعبيرا أكثر أصالة عن هذه الحضارة إن لم يكن في اللغات و الآداب المحلية لهذا البلد.

المحاضرة الثامنة

فنون الإبداع في الأدب الإفريقي

الشعر :

رغم التخلف و رغم الاستعمار من غير المعقول أن تكون قارة بحجم أفريقيا عقيما لا تنجب شخصيات بارزة في جميع الميادين يشهد لها العالم و يؤرخ لها التاريخ و الذي يهمننا هنا الأدباء و الشعراء و الأكيد أن بداية حديثنا ستكون من الشعر باعتباره يسبق النثر عند جميع الأمم و الشعر في إفريقيا يمكن تقسيمه إلى أربعة أنواع :
الشعبي الفولكلوري المكتوب باللغة المحلية و المكتوب باللغة الوافدة وقد كان للشعر مكانة مرموقة عند الأفارقة تقول المستفركة آن تيل : لة سألت بين الشكرية أو بين قبائل السودان الأخرى أو حتى خارج السودان..هل عندكم شاعر ؟ لظهر شاعر في زمن أقل بكثير مما يستغرقه زمن العثور على شاعر في بريطانيا.فليس غريبا إذا أن يكون الشعراء بعدد لا يحصى خاصة شعراء الشعر الشعبي و سنحاول في هذه العجالة أن نقف عند بعض النماذج لشعراء كتبوا باللغة المحلية من هؤلاء شاعر جنوب إفريقي كان يوقع أشعاره المكتوبة بلغة الزوسا ب"الهارب من الأمة " يقول:

يظننا لبعض حتى الآن أننا لن نتكلم أبدا

فقد مزقوا أعماق أعماق وجودي

و مسؤوليات اسرتي و ثرواتها

ما زالت ترحل معي إلى القبر

لأجل ماذا هذا الإنجيل؟

ما الخلاص؟

و يقول مقايي (ت 1945) و بنفس اللغة :

أنت بريطانيا الراغدة

أيهما يجب أن نحب

أرسلت لنا الحقيقة و أنكرت علينا الحقيقة

أرسلت لنا الحياة و سلبت منا الحياة

أرسلت لنا النور زها نحن نجلس في الظلام

و الأكيد أن أهم ما نلاحظه على هذين النموذجين الطابع الحزين و حضور الدين اضافة إلى البساطة التي تميز
الشعر الإفريقي بصفة عامة .

المسرح:

للافارقة مسرحهم و كغيرهم من الأمم فإن البدايات الأولى لهذا الفن ارتبطت بالطقوس الدينية المتمثلة في تلك
الحركات و المساحيق و الملابس التي اشتهرت بها القبائل الإفريقية قديما و ما زالت بعضها إلى اليوم تمارسها و
قديما كتب ابن بطوطة ملمحا إلى وجود ما يمكن اعتباره إرهابات مسرحية سماها الأضحوكة و قصد بها ما
حضره في مجلس سلطان مالي من جلسات يحضر فيها مداحون و مجموعة شباب يقومون بحركات تمثيلية أمام
الحاضرين من جلساء السلطان .

و لقد كان للمسرح الإفريقي وظيفة اجتماعية بالدرجة الأولى يلخصها المهتمون بدراسة المسرح الإفريقي في
ثلاث وظائف رئيسية :

- المسرح مرآة للحياة المتصلة بالطبيعة

- المسرح أداة للمحافظة على تقاليد الجماعة

- المسرح أداة للتعليم و التثقيف

و المسرح الإفريقي في عمومته يستقي مادته من الواقع و ينطلق فيها من الأساطير التي يوظفها توظيفاً رمزياً و
مع هذا المسرح التقليدي ظهر مسرح منافس أعني به ما يمكن أن نسميه بمسرح الإرساليات تلك المسرحيات
المسيحية الوافدة عن الاستعمار عن طريق الإرساليات التبشيرية التي قادها المبشرون الذين سعوا إلى طمس معالم
المسرح الإفريقي الشعبي متحججين بأنه مسرح و ثني و الحقيقة أنهم يريدون إبعاد الأهالي عما يربطهم بثقافتهم
من أجل التمكين للمسيحية من جهة و نشر اللغات الأوروبية من جهة أخرى .

أما بعد استقلال الدول الإفريقية فظهر مسرح يخدم القضايا الوطنية لهذه الدول من نماذج ذلك ما قدمه المسرحي الغاني " دانغو "كم مسرحيات أشهرها مسرحية " المرأة المثالية " التي امتدحها النقاد و اعتبروها من أنضج المسرحيات الإفريقية الحديثة تصور هذه المسرحية الصراع بين إفريقيا و أوروبا و تقوم أحداثها على أسطورة شعب آكان في غانا خلاصتها أن الإله خلق ثلاثة أنواع من النساء كل نوع ينتمي إلى مرحلة تاريخية : القديم /الاستعمار / الاستقلال حيث بدت إفريقيا في مواجهة أوروبا منتصرا في النهاية لوطنه.

الرواية القصة:

يتفق النقاد و الدارسون سواء على أن هذين الفنانين بشكلهما الحالي و بمقومتهما كما يحددها النقاد اليوم دخلتا إلى إفريقيا في العصر الحديث من خلال الاحتكاك المباشر بالثقافة و الحضارة الأوروبية الناتج عن الحملات التبشيرية و الاستعمارية و هذا ما يقر به الناقد "دارثوني " الذي يقول : إن الرواية في إفريقيا هي الشكل الفني الأدبي الوحيد الذي دخل عن طريق الاستعارة الخالصة و هذا الكلام - بالرغم من بعض التحفظ عليه من بعض الأفارقة الذين يقولون أن الرواية لا يمكن أن تكون غريبة كل الغرابة على شعوب يمتلكون تراثا ضخما مليئا بالسير و الحكايات - إلا أنه يحمل في طياته اعترافا يكاد يكون صريحا بوجود فنون أدبية إفريقية بخصائص و مميزات افريقية . المهم أن الأدباء الأفارقة استطاعوا أن يقتحموا هذا الفن و يبدعوا فيه بلغاتهم المحلية قبل اللغات الاستعمارية الوافدة ما يدل أن اللغات المحلية المكتوبة كالتونغا والزوسا و الشونا هي لغات مرنة يمكنها ان تنتج الفن القصصي و الروائي رغم ما يتطلبه هذا الفن من تقنيات .

من النماذج الروائية الروائية التي يتحدث عنها النقاد ما كتبه الروائي "توماس موفولو"(1948/1876) بلغة السوتو من روايات بدا في أغلبها كثير الميل إلى الاتجاه الديني نظرا لنشأته الدينية أحضان أسرة متكونة من أبوين مسيحيين وتعتبر رواية " مسافر من الشرق " باكورة أعماله من أشهر رواياته ، تدور أحداث هذه الرواية في ليسوتو بطلها شاب يعيش في بيئة بسيطة ضاقت به الحياة فارتحل شرقا و غربا بحثا عن الراحة و الطمأنينة و المعرفة التي وجدها عندما اهتدى إلى نور المسيحية بعد كثير من الشقاءة التأمل.

في الأخير يمكننا القول أن القارة الإفريقية أنجبت لنا العديد من الأدباء الذين تعدت شهرتهم إفريقيا و داع صيتهم خارجها كما أن بعض الدول الإفريقية المستقلة حديثا تبذل الكثير من الجهود لتدوين اللغات المحلية و تعليمها و اعطاء فرصة الكتابة بها. لكن رغم ذلك فإن الطريق ما زال طويلا أمام الأدب الإفريقي.

